٢ ــ كلمة في التحيّز

د. علي جمعة

هذه كلمة في مسألة التحيز أقرب إلى العصف الذهني واسترجاع المعلومات وربطها أكثر منها بحثًا أكاديميًا يحتاج إلى إرجاع ومراجع ويمكن أن نسير في ذلك مع تلك النقاط التالية:

١ ـ كلمة تحيز على وزن تفعل ففيها معنى الطلب ويمكن أن نقول إن فيها «طلب حيز»، الحيز: الحد، ولقد قسم الأقدمون الموجود إلى متحيز وغير متحيز، فالمتحيز ما شغل حيزًا في الفراغ كالجوهر والجسم، وغير المتحيز ما لم يشغل حيزًا في الفراغ بل يحتاج إلى غيره ليقوم به (كالأعراض، والألوان، والمعاني كالفقر والغنى والمرض والصحة والذكاء.. إلخ)، فالمتحيز بهذا المعنى ماله حيز واحد، وهي صيغة تصلح لأن تكون اسم مكان أو اسم فاعل، وعلى ذلك فهو مكان محدد بسور يميزه عن غيره، أو هو شخص قام به ذلك المعنى.

فلو رجعنا إلى معنى التحيز لوجدنا معناه حصر الشخص نفسه في حيز ومكان مسوّر بسور متميز عن غيره، وهذا هو المعنى الحسي للكلمة، أما استعمالها الشائع فهو استعمال مجازي حيث تستعمل عادة في المسائل الفكرية والمعنوية، فيقال فلان متحيز لفلان ويقف معه، ويدافع عنه ويتبناه، وعلى ذلك فالتحيز له حقيقة في اللغة ومجاز في الاستعمال، أما إذا فرضنا أنه يشمل هذين المعنيين (الحسي والمعنوي) في اللغة على سبيل الحقيقة في القدر المشترك بينهما فيكون استعماله في

المعنى المعنوي على سبيل الغلبة، والغلبة هي أن يكون للكلمة عموم بحسب الوضع اللغوي فيعرض لها خصوص بحسب الاستعمال.

٢ ـ وأرى أن هناك علاقة بين التحيز وبين مسألة العدل والهوى، فالتحيز ينبغي أن يكون منه ممدوح ومذموم، فالممدوح هو ما وافق العدل وكان العدل هو الدافع والحافز لتبني المواقف والآراء والأفكار، والعدل ما طابق الواقع، والحق وهو ما طابقه الواقع من العدل، والحكم برد الحقوق إلى أصحابها، والمطالبة بالواجبات من أهلها من العدل وإقامة البرهان على الدعوى والدليل على القضية من العدل، وعكس ذلك كله هوى، والهوى هو الذي ينشأ عنه التحيز المذموم، والعدل والهوى لا يمكن إدراكهما بصورة واضحة إلا من خلال الإيمان بالمطلق، فإن لم يكن هناك إيمان بالمطلق فلا كلام ولا قاعدة يُرد إليها الحوار والنقاش ولا مقياس تقاس به الأمور وتوزن به الأشياء، فأول تحيز هو التحيز إلى المطلق ووجوده والإيمان به واعتباره قاعدة يرد إليها الكلام ومعيارًا يحكم الحوار والعلاقات فإذ لا مطلق فالضياع.

٣ ـ فإذا تقرر هذا فهناك أهمية كبيرة للتفريق بين تصور التحيز وتصديقه فالتصور هو إدراك المفرد والإدراك حصول صورة الشيء في الذهن، فأول خطوة هي إدراك التحيز وإن لم أسلم به أو أذعن لمضمونه. والتصديق هو إدراك النسبة مع الإذعان وهذا هو الفرق بين الفهم والتسليم، فقد نفهم بتصورنا للمسألة مراد الكلام والخطاب ولا نكاد نصدق أن ذلك هو غرض المتكلم من كلامه، ولذلك اختار بعض أهل اللغة أن لفظة (الفقه) ليس معناها فهم الكلام فقط بل فهم غرض المتكلم من كلامه وهي مرتبة أعلى وأكثر تقدمًا من مجرد الفهم.

٤ ـ يلي ذلك الفهم، والتسليم بأن ذلك غرض الكلام، مرحلة التقويم حيث نعرض ما فهمناه وسلمنا بمراده على ميزان المطلق، فإن كان العدل فهو تحيز محمود وإلا فهو تحيز مذموم مردود.

٥ ـ ويلي مرحلة التقويم تبني الأفكار والتحيز لها ثم انبثاق السلوك الإنساني منها، فالسلوك في رأيي ينبثق من المفاهيم القائمة في ذهن

الإنسان حيث تكون تلك المفاهيم متحيزة ثمة تحيز وإذا أريد تغيير السلوك فعلينا بتغيير المفاهيم، وهذا يستلزم تغيير التحيزات والقناعات التي يعتنقها الإنسان، وكل ذلك يتم إذا قيس ورد وتمحور حول المطلق، وغير ذلك هو الشتات والسفسطة التي لا تصل بنا إلى شيء.

٦ ـ والمفاهيم القائمة في الذهن منها السطحي ومنها العميق ومنها الواعي، أما السطحي فهو فكرة عامة مبهمة ترى ظاهر الأشياء دون حقائقها والوقوف على كنهها، وأما العميق فيرى ما بعد المشاهد بالحس المجرد، وأما الواعي فهو الذي يربط محل التفكير بعضه ببعض ليصل إلى صورة كلية صحيحة عن الحق.

٧ ـ ومحل التفكير وموضوعه قد يكون أشياء أو أشخاصًا أو أحداثًا وأفكارًا أو نظمًا أو عقيدة وتحدد مساحات الاهتمام بهذه الستة مستوى تعقل الإنسان ودرجة اهتماماته الفكرية، فالعوام يكثر تفكيرهم وتنحصر دائرة اهتمامهم في الأشياء ثم الأشخاص مع شيء يسير من الاهتمام بالأحداث، ومن فوقهم من المتعلمين أو ما يطلق عليهم «المثقفون» يكثر تفكيرهم في دائرة ما بين الأشخاص والأحداث مع شيء من الأفكار، ومن فوقهم من المفكرين والمنظرين يهتمون بالأفكار والنظم، ويربط جميع هذه الخمسة العقيدة من ناحيتها العملية عند عموم الناس أو النظرية عند المفكرين خاصة.

٨ ـ وهناك فرق بين التحيز وبين الرأي الموضوعي على مستوى الواقع من جهة وعلى مستوى الأمل (ما ينبغي أن يكون) من جهة أُخرى، والتحيز قد يتعارض أو يتوافق مع الرأي الموضوعي، فالرأي الموضوعي ينصب على الحكم على موضوع الكلام، أما التحيز فهو منشئ ذلك الرأي، ولأن التحيز منه ممدوح ومذموم فإنه يصدر منه الرأي الموضوعي ويصدر منه الهوى ونرى المتحيز يميل عن الرأي الموضوعي في بعض الأحيان، وإن كان المبدأ يدعوه إلى غير ذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [سورة المائدة: ٨].

ويمكن تصور المسألة برسم توضيحي يدل الأول على العلاقة بين

التحيز والرأي الموضوعي على مستوى ما ينبغي أن يكون والثاني على مستوى الواقع: إن دائرة التحيز لغير المطلق تختلف عن التحيز للمطلق، والذي فيه أ، ب متحيزان للمطلق ومختلفان في تحيزهما، فيمكن أن نصور ذلك بدائرتين كل منهما تمثل تحيز فريق من الفرقاء، ونرى أنه في كل تحيز ما هو ممدوح وما هو مذموم عند الآخر (وإن كان ممدوحًا طبعًا عند من تبناه) ونرى اشتراكهما في مساحة مشتركة هي الرأي الموضوعي المنصب على ما ينبغي ألا يكون فيه خلاف إذا روعي العدل، ويمكن أن يقبل كل فريق المساحة التي يراها ممدوحة في ظنه حتى ولو لم يقل بها ولم تكن في دائرته، ويمكن دائمًا إجراء الحوار والنقاش في تلك المساحة المنتقدة في كل من الدائرتين (وهي المذمومة عند الخصم) حيث تنتمي الفرقتان إلى التحيز بالأساس إلى المطلق، ونرى أنه لا حوار بينهما وبين الدائرة المنفردة التي خرجت عن نطاق المطلق.

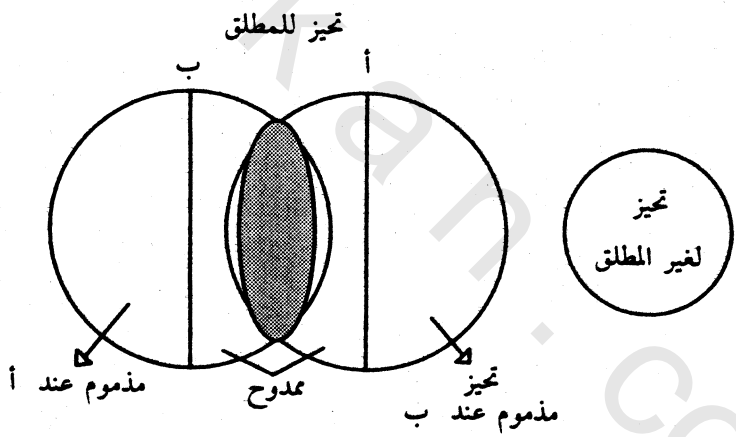

٩ ـ ويمكن أن يتخلى فريق عن تحيزه وينضم إلى الآخر إذا قيست الأمور بميزان معين ليس هنا مكان تفصيله، فالتحيز ينشأ أساسًا من وجهة النظر الكلية عن الإنسان والكون والحياة، وهي ما يمكن أن نطلق عليه لفظ (العقيدة) ويساعد في إنشائه التفكر والإيمان أو المصالح والتجربة التاريخية والتوجيهات الواقعية أو خليط من هذا كله، وينشأ عن العقيدة الأفكار والنظم والمواقف وينبثق من هذا كله السلوك وتبنى عليه العلاقات.

١٠ ـ أما الواقع فيمكن أن نصوره بالدوائر التالية:

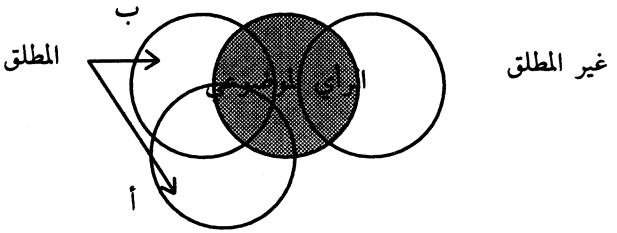

حيث أن في الواقع تشابكًا بين المتبنى للمطلق وغير المتبنى له من الرأي الموضوعي. فإن هذا التصور للواقع والأمل وللتحيز بشقيه والممدوح والمذموم وللرأي الموضوعي الذي يستلزم الحياد هو في ظني تفسير لقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٨].

١١ ـ وحيث أن اللغة هي الوجه الآخر للفكر، فهما وجهان لعملة واحدة وباعتبار أن التحيز في المصطلحات المقابلة للمفاهيم في غاية الأهمية سواء أكانت هذه المصطلحات من وضع اللغة (أعني المعنى المعجمي الموروث) أو من الوضع العرفي (أعني مصطلحات العلوم والفنون المختلفة أو ما شاع به الاستعمال) فإنه يجدر بنا الكلام عن مثالين للتحيز الذي تنتج عنه آثار واقعية اجتماعية ونفسية ومواقف فلسفية تؤثر على سلوك الفرد اليومي وتبنيه للأفكار وتحديده للعلاقات.

١٢ ـ فكلمة العلم والتي تعني عند العربي المسلم الإدراك الجازم الثابت المطابق للواقع عن دليل ـ غير العلم بمعناه الغربي Science الذي يحصر الأمر في الجانب التجريبي الحسي في حين أن الإدراك الجازم الثابت المطابق للواقع قد ينشأ عن المعقول أو المحسوس أو النقل والرواية، وتبني الغرب لهذا المفهوم نشأ عن تحيزه لمناهجه الوضعية التي تمخضت عن صراعات فكرية استمرت أكثر من أربعة قرون كونت بعناصرها المختلفة وجهة النظر الكلية التي أفرزت التحيز الذي بنى عليه هذا المفهوم، ويقال مثل ذلك على المسلم الذي عرف العلم في مقدمات علومه واختلفت المدارس وتنوعت وتطورت الصياغات عبر القرون حتى استقرت على ذلك التعريف الذي قدمناه والناتج عن تحيزه لثقافته ووجهة نظره الكلية.

إن هذا الاختلاف ستنشأ عنه اختلافات كبيرة وكثيرة في كل المجالات وسيحدد موقف الإنسان من مسألة اليقين وطرق تحصيله والظن ودرجة الأخذ به وموقفه من الشك والوهم وكذلك لما هو علمي على ما تشتمل عليه هذه الكلمة ومردودها لدى السامع من معان وما هو غير علمي على ما تشتمل عليه هذه الكلمة أيضًا من مردود لدى السامع وما تحتويه من ضلال الجهل، وإن الخروج عن النسق المعرفي للبحث العلمي الغربي يرفض من جانبهم لتحيزهم المسبق لمسلمات تبدأ من تعريفهم للعلم وتؤثر في مفهوم المنهج مرورًا بمسائل العلم وجزئياته، وعلى ذلك فإن من أساسيات الفهم الدقيق لأي علم من العلوم أو فن من الفنون هو أخذه من خلال إطاره المرجعي وموقف التحيز وتأثيره فيه فإن هذا الفهم وذلك الأخذ هو أول خطوة لنبذ التقليد والخروج من التبعية لمن أراد الإبداع أو الاستقلال أو إنشاء ما ينطلق من تحيزه وإطاره المعرفي ولمن أراد أن يعالج الموضوعات وينظر إليها نظرة موضوعية مستقلة عن تحيزاتها الفلسفية المسبقة.

١٣ ـ وإذا كان الخروج عن النسق الموضوع في نطاق العلم يقتضي اتهام من كل فريق للآخر فيما خرج منه خصمه، فإن الخروج من النسق الواقعي السلوكي وضوابطه يستلزم أيضًا تبادل الاتهامات التي لا تحسم إلا بالرجوع إلى الميزان وهو العدل.

ومثال ذلك اختلافهم في مفهوم الإرهاب وما تعنيه هذه الكلمة وما يترتب عليها من سلوكيات ومواقف وتبني آراء وتصرفات، وهي الكلمة التي تحيز فيها الناس وما ذلك إلا لاختلافهم في تحيزاتهم ومواقفهم الأساسية، فالمطالبة بالحقوق السلبية واستعمال القوة في الحصول على تلك الحقوق بعد فشل كل أشكال الحوار والتحادث أمر ممدوح بمقياس الحق والعدل إلا أن تعريف الحق، وتعريف العنف، ومدى ومتى يستعمل: حمل الفرقاء على الاختلاف في حين أنه لو رد الأمر لثوابت العدل وميزان المطلق لانتهت أغلب الخلافات حول المسألة.

١٤ ـ ومثل هذا كله: التخلف والهمجية والرجعية والتعصب..

إلخ وهي مقابلة للتقدم والتحضر والرقي والتسامح. . إلخ وهي كلها (الكلمة ونقيضها) مما يلعب التحيز دورًا في تحديد معانيها وبناء مفاهيم تجاهها وانطلاق سلوك ينبثق من تلك المفاهيم حولها.

هذه نظرة سريعة لقضية التحيز، أسأل الله أن تكون منطلقًا لمابعدها من بحث أعمق وتوثيق أشمل، والحمد الله رب العالمين.

obeikan.com